المبحث الثاني

العلـــــم

كان العرب أمةً أميّةً تحيط بها أممٌ لها ثقافاتٌ وفلسفاتٌ دينيّةٌ وعقليّةٌ وباطنيّةٌ ، ولمّا بعث الله نبيّه محمّداً ﷺ بدين الإسلام الذي يحمل العلم الحقَّ ﴿ **فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ** ﴾[1] ، والذي يرفع قيمة الإنسان بقدر علمه : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[2] . وهو ارتفاعٌ وتميّزٌ بالعلم للفرد والجماعة مثلما هو ارتفاعٌ وتميّزٌ للأمّة والحضارة – لما بعث الله محمداً بهذا الدين – تحوّلت الأمة العربيّة من الأميّة إلى أمة علمٍ يتبلورُ علمها في حضارةٍ ارتقتْ بالحياة البشريّة في كلّ مجالاتها إلى آفاقٍ إنسانيّةٍ عليا ما وصلت ولم تصل إليها حضارةٌ أخرى .

لقد كان العلم هو قائد هذه الحضارة ، وموجّه حركة الإنسانيّة في مسارها الشّامل ، وحينما تقهقر هذا العلم اضمحلّتْ هذه الحضارة وانحسرتْ .

ومن جانبٍ آخر فإنّ « العلم » هو الجواد السّابق في الحضارة الغربيّة المعاصرة ، على الرّغم من الاختلاف الجذري بين العلمين ؛ في الحضارة الإسلاميّة والحضارة الغربيّة .

وقد دخل العلم بمفهومه الغربي الحديث غير المتّسق مع الإسلام على المسلمين ، فأفسد في حياة المسلمين المنفعلين بمفهومه هذا على حساب المفهوم الحقيقي له في الإسلام .

---

(١) الآية رقم (٦١) من سورة آل عمران .

(٢) الآية رقم (١١) من سورة المجادلة .

وأشير في هذا المبحث إلى نقاطٍ هي :

- مفهوم العلم في الإسلام ومنطلقاته ومجالاته .
- مفهوم العلم في الفكر الغربي وتأثيراته على المسلمين .
- فلسفة العلم في المملكة بصفتها فلسفةً متميّزةً في هذا العصر بارتكازها على الرّؤية الإسلاميّة .

النقطة الأولى : مفهوم العلم في الإسلام

يقول الرّاغب الأصفهاني محدّداً مفهوم العلم من خلال استقرائه لآيات القرآن الحكيم : « العلم هو إدراك الشيء بحقيقته، وذلك ضربان : إدراك ذات الشيء ، والحكم على الشّيء بإثبات شيءٍ هو موجودٌ له ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه »(١) .

وذلك يعني أنّ العلم ليس محصوراً بمصدرٍ واحد، ولا مجال معيّنٍ دون غيره، فمتى ما ارتقتْ المعرفة إلى مستوى الحقيقةً أصبحتْ علماً في أيّ مجالٍ، ومن أيّ مصدرٍ يمكن أن تتحقّق به تلك المعرفة : « فيشمل العلم جميع أنواع المعارف سواء كان مصدرها العقل كالرياضيات والمنطق ، أم كان الحسّ والتجربة بالإضافة إلى العقل كالطبّ والكيمياء والفيزياء والفلك، أم كان الذّوق والعاطفة كالأدب، أم السماع جيلاً بعد جيلٍ كاللغة، أم الوحي والنبوّة والنقل عن مصدر الوحي في علوم الدين من العقيدة والتفسير والحديث والفقه »(٢) .

ولكنّ الإسلام بما هو دينٌ معياريٌّ حاكمٌ يُقَسِّمُ « العلم » من حيث ما يحقّقه من مصلحةٍ شرعيّةٍ ونفعٍ بشريٍّ قسمين :

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصبهاني ، ص ٣٤٣ ، مصدر سابق .

(٢) الإسلام والفكر العلمي، محمد المبارك ، ص ١٥ ، الطبعة الأولى، دار الفكر ، بيروت .

(النوع الأوّل) : علمٌ مذمومٌ

صرف الله المسلمين عن الأخذ به وسلوك طريقه لما يثمره في نفس صاحبه ، وفي الحياة البشريّة من مفاسد وأضرار ؛ وذلك مثل علم السِّحر الذي بيَّنَ اللهُ في سورة البقرة في قصّة هاروت وماروت ما ينتجه من فتن وأضرار ، وأنه صنعة الشياطين : ﴿ **وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾ (١) .

ومثل علم التشريع لحياة البشر بمعزل عن شريعة الله ؛ لأنّ التشريع لله وحده ، فكان التشريع من دونه اعتداءً على حقّه : ﴿ **أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ** ﴾(٢) وسواءٌ كان هذا التشريع في أمور العبادة والأخلاق ، أو كان وهو أخطر وأعظم في أمور العقيدة والإيمان ، حيث نهى الرّسول ﷺ عن التفكير في ذات الله ، ومن ثَمَّ وضع تصوّرات عقليّة عن ذاته وصفاته ، أو عن سائر الغيبيّات خارج ما أخبر به الله في وحيه إلى رسوله ، يقول ﷺ : « تفكّروا في آلاء الله ، ولا تفكّروا في ذاته ، فتهلكوا »(٣) .

ولقد صان المسلمون الأوّلون عقولهم عن تقحّم هذه المجالات المنهيّ عن الخوض فيها ، فوفّروا طاقاتهم في المجالات المحمودة المنتجة ، أمَّا الذين أغراهم بريقها فدخلوها وركضوا بخيلهم في ميادينها ، فقد كانت نتيجتهم الضّلال والتّيه وتعويق حضارة الأمّة عن ارتقائها ، وقد ندم كثيرٌ منهم وعلموا بالغبن الذي أوقعوا أنفسهم فيه ، كما حصل لكثيرٍ من علماء الكلام وعلوم السِّحر والطلّسمات ، واعترفوا بخطورة ما فعلوا .

---

(١) الآية رقم (١٠٢) من سورة البقرة .

(٢) الآية رقم (٢١) من سورة الشورى .

(٣) رواه البيهقي في الشعب ، وأبو نعيم في الحلية ، وهو حديثٌ صحيحٌ ، انظر : سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني برقم [١٧٨٨] ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي .

النَّوع الثانـــي : العلم المحمود وهو العلم الذي يتوافر فيه :

- الانضباط بهدي الإسلام غايةً ومنهجاً .
- رعاية المقاصد الشّرعيّة تحصيلاً للمصالح ودرءاً للمفاسد .
- إبراز ما أودعه الله في آياته : القرآنيّة، والتشريعيّة، والكونيّة من منافع وهدايات للناس .

ولهذا فإنّ أبرز مجالات العلم المحمود هي :

المجال الأوّل : علوم الوحي

التي تتحقّق بالاستمداد منه فيما يتعلّق بمعرفة الله بأسمائه وصفاته ، ومعرفة حقيقة الإنسان وحكمة وجوده، وهذه الحياة وموقع الإنسان فيها ، وتعرّف منهج عبادة الله ، والخلافة في أرضه ، والعلم بالحياة الآخرة ، ومسؤوليّة الإنسان فيها، وهذا ما يتجلَّى في مَيدانَيْ :

- العقيدة مما يتعلّق بالإلهيّات والنبوّات والسّمعيّات مستمدّةً من الوحي ، حيث يكون دور العقل فيها أن يتلقى ويفهم .
- الشّريعة، وهي المتضمّنة تحديد ما للنفس وما عليها لله أو لخلقه، والعلم بها يسمّى علم « الفقه » وفيه يقوم العقل المؤهّل بالاجتهاد لاستنباط الأحكام الشّرعيّة لكلّ مستجدّات الحياة .

ولأنّ الإسلام جاء ديناً إنسانيّاً يهدف إلى الارتقاء بهذا الكائن وحفظ حقوقه ، وضبط سلوكه في مدرجٍ سامٍ ، فقد كان « الفقه » هو علم الحضارة الإسلاميّة الذي برزتْ به بصفتها حضارةً إنسانيّةً خلقيّةً ، حيث تتابع عمالقة الفقه ابتداءً من عهد الصّحابة فمن بعدهم في كلّ إقليمٍ وبلدةٍ من بلدان الدَّولة

الإسلاميّة التي تزداد اتّساعاً تحقيقاً لقوله سبحانه : ﴿ **فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾[1] .

المجال الثاني للعلم المحمود هو العلوم العقليّة

التي يعتمد فيها العقل على مبادئه الضرورية ليولِّد منها طرائق استدلاليَّةً ، ومعارف حسابيَّةً وهندسيَّةً ونحوها ، مما يوظِّفه الإنسان والمجتمع في تحقيق مصالحه الدُّنيويَّة والدِّينيَّة .

المجال الثالث : علم الكون

وهو العلم الذي يحقق الإنسان عمليّاً من خلاله خلافته في الأرض بمزاولته للمهَن الفنية في مواد هذا الكون المختلفة جماداً ونباتاً وحيواناً من أجل تأمين مطالبه الغذائيَّة ، أو قوَّته العسكريَّة أو علاج أمراضه أو لباسه وسكنه ، ونحو ذلك من المطالب الشرعيَّة التي أمر الله ورسوله بها : ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾[2] وقول ﷺ : « تداوَوْا ، ولا تَداوَوْا بحرام »[3] .

المجال الرّابع : الحياة الإنسانيّة

حيث وجّه الإسلام للنظر في سنن الله التي أجرى عليها حياة الناس الفرديَّة والاجتماعيَّة ، وهي سننٌ ماضيةٌ لا تغيير فيها ولا تبديل : ﴿ **سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** ﴾[4] . ومعرفة الإنسان بها تجعله

---

(١) الآية رقم (١٢٢) من سورة التوبة .

(٢) الآية رقم (٦٠) من سورة الأنفال .

(٣) رواه أبو داود، وروى مسلم في صحيحة قول ﷺ : « إنَّ لكل داء دواءً، فإذا أصيب دواءُ الداءِ بَرَأ بإذن الله تعالى » . انظر : صحيح مسلم، ٤/ ١٧٢٩ ، ومسند الإمام أحمد ، ٤/ ٧ .

(٤) الآية رقم (٦٢) من سورة الأحزاب .

يستثمرها في حياته الشخصيّة والاجتماعيّة ويتقي مصادمتها من أجل حياةٍ إنسانيّةٍ سعيدةٍ [1].

هذه هي مجالات العلم المشروع في الإسلام ، وعلى الرغم من تساويها في الحكم الطّلبي لها شرعاً بصفتها فروضاً كفائيّةً [2] يجب على الأمّة أن يكون في كلٍّ منها ما تتحقّق به المصالح الشّرعيَّة للمسلمين والإسلام ، وإلا أثمت الأمّة كلّها -على الرّغم من ذلك- فإنّها ليستْ على مستوى واحد في قيمتها العلميّة والشرعيَّة ، فالعلم المستمدّ من الوحي -عقيدةً أو تشريعاً- هو الأصل المقدّم على غيره من العلوم :

- لعظمة مصدره ، وهو وحي الله لا عقل البشر .
- ولمنزلة موضوعه ، وهو تحديد وجهة الإنسان وغايته ومنهج حركته السّليم في هذه الحياة .

ولهذا كان هذا العلم -وهو المسمَّى اصطلاحاً بالعلم الشرعي- هو العلم الأوّل في الحضارة الإسلاميّة ، وهو الذي أخذ صفة العلم إذا أطلقتْ ، فإذا قيل مثلاً: فلانٌ يطلب العلم، أو فلانٌ عالمٌ ؛ فإنّ المقصود تحديداً العلم الشّرعي دون غيره، وهو الذي يتّجه إليه حديث الرّسول ﷺ : « طلب العلم فريضةٌ على كلّ مسلمٍ » [3].

---

(١) انظر : المدخل للتفسير الموضوعي، لعبد الستار سعيد ، ص ٢١٧ ، الطبعة الثانية ،١٤١١هـ، مصر .

(٢) باستثناء المعلوم من الدِّين بالضرورة فهو واجبٌ عيناً .

(٣) رواه ابن ماجه، وقال المزني : « روي هذا الحديث من طرق تبلغ رتبة الحسن ». انظر : شرح السنة، للبغوي ، ١/ ٢٩٠ . قال الشيخ الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح للتبريزي ١/ ٦٧ : « اعلم أن السيوطي جمع طرق الحديث حتى أوصلها إلى الخمسين، وحكم من أجلها على الحديث بالصحة، وحكى الصرامي صحته عن بعض الأئمة، وحسنه غير واحد ».

ولكنّ هذه الأولويَّة للعلم الشرعي على العلوم العقليّة والكونيّة والاجتماعيّة لا تنفي علميَّةَ تلك العلوم إذا استندتْ على منهجٍ سليمٍ، ولا تنكر كونها علوماً مطلوبةً شرعيّاً وإنسانيّاً كما فعل الغربيّون في فَوْرَةِ حماستهم للعلم المادِّي التجريبي بإنكار العلم في أيّ مجال ومن أيّ مصدر سواه، وحصروا « العلم » به-كما سيأتي-؛ ولذا كان من السّذاجة أن يطالِب أناسٌ الدّاعين إلى الإسلام في هذا العصر « بأن يتوقّفوا -في طلبهم العلم- عند القرآن والحديث » ؛ لأنهم كما يتصوّر هؤلاء « يعتبرون أن لا وجودَ لعلمٍ إسلاميٍّ غير علم الشّريعة »[1].

لا ريب أنّ هذا التصوُّر ناتجٌ عن تشوّه مفهوم العلم ومجالاته في الإسلام لدى هؤلاء .

منطلقات العلم في الإسلام :

يتميَّز العلم الإسلامي بمنطلقات خاصة تجعله يسير في مسلك متميّز عن مسالك المعرفة لدى الأمم الأخرى حتى وإن تداخلتْ معه في بعض الجوانب، ومن أهمّ هذه المنطلقات :

- **الوحدانيّة** ، فهو ينطلق من التوحيد متعاملاً مع الأشياء والأحداث بصفتها مخلوقةً لخالقٍ واحد ، وجاريةً بأمره ، وخاضعةً لسلطانه ، وأنها مخلوقةٌ بحكمةٍ وعدلٍ وتقديرٍ ، فلا فوضى في حركة الكون ، ولا عبث في وجوده.

كما أنّ العلم الإسلامي ينطلق من الوحدانيّة في توجيهه الحياة البشريّة لتقوم على هذا التوحيد في العبوديّة لله وحده، والخلافة في أرضه ، محارباً

(١) الصحوة الإسلاميّة وهموم الوطن العربي، من كلام لهشام جعيط، مجموعة مؤلفين، تحرير سعد الدين إبراهيم، ص ٢٨٧ ، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، عمان .

الجهل والخرافة والشّرك والإلحاد .

لذا فإنّ المسلم كلّما ازداد علماً زاد بالله إيماناً ، وله تعظيماً وخشيةً وحبّاً وخضوعاً كما قال سبحانه : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[1] .

- **الشُّمُوليّةُ مع أولويّة العلم الشّرعي** ، كما سبق أنّ العلم في الإسلام شاملٌ لعديد المجالات فهناك -كما يقول علماؤنا السابقون- علم الأديان وعلم اللِّسان وعلم الأبدان وعلم العمران ، وكلّها فروضٌ كفائيّةٌ[2] إلا أنَّ علم الدين « العقيدة والشريعة » هو المقدّم، وهو مرتكز العلوم كلّها في الإسلام ، ولهذا قسَّمَ العلماء العلم قسمين :

- علم المقاصد ، وهو علم العقيدة والشّريعة .
- وعلم الوسائل ، وهو ما سواها من فنون العلم .

وأخذاً بهذا المنطلق كان العلماء في كلّ فنون العلم في الحضارة الإسلاميّة علماء شرعيِّين ، أو لديهم نصيبٌ كاف من العلم الشَّرعي ، كما أنَّ الوعيَ بهذا المنطلق لدى جيل الصّحوة الإسلاميّة المعاصرة دفع المتخصِّصين منهم في العلوم الكونيّة والاجتماعيّة إلى طلب العلم الشَّرعي من كتبه وعلمائه .

- **الهدفيّة العمليّة** ، العلم الإسلامي أيّاً كان مجاله له غايةٌ عمليّةٌ هي تحقيق إنسانيّة الإنسان في هذه الحياة بأن يكون عبداً لله ، خليفةً صالحاً في هذه الأرض يعمرها بطاعة ربِّه .

فإذا انقطع العلم عن هذه الغاية فقد قيمته ، وخرج عن صبغته الإسلاميّة،

---

(١) الآية رقم (٢٨) من سورة فاطر .

(٢) هناك ما يسمى المعلوم من الدين بالضرورة، وهو ما لا يقوم دين مسلم إلا به فهذا من علم الشريعة، فرض عين لا يسع مسلما جهلُه.

وقد فسَّرَ العلماء قوله ﷺ : « اللهمَّ إنِّيْ أعوذ بك من علمٍ لا ينفع »[1] بأنّه العلم الذي لا عمل تحته .

- **الموضوعيّة** : الحقّ هو مدار العلم في الإسلام طلباً له وحملاً ، ودعوةً إليه حتى في المجالات الدينيّة والقيميّة ، فهو إذا دعا الآخرين إلى دينه وقيمه لا يدعوهم إليها لأنها دينه وقيمه ، ولكن لأنها الحقّ ، وحينما يرفض ما لدى الآخرين من عقائد وقيم فلأنها لا تمثِّلُ الحقيقة ، ولا تركن إلى أساسٍ علميٍّ : ﴿ **قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾[2] ﴿ **هَؤُلاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا** ﴾[3] . ولهذا يتعامل العالم المسلم دائماً بثقة من أنّ حقائقه العلميّة التي جاء بها الوحي موافقةٌ لكلّ حقٍّ تأتي به المعرفة البشريّة ، وأنّ أيَّ نظريّة أو فكرة تخالف هذه الحقائق باطلةٌ تلقائيّاً وإن بقيتْ لدى أصحابها فترةً من الزمن غير مكشوفةِ العَوَر .

العلم في الفكر المعاصر :

مشكلة « العلم » في الثقافة الغربيَّةِ الحديثة تُعَدُّ مأساةً بشرية في أصلها وردِّ فعلها .

لقد كانت الدِّيانةُ الكنسيَّةُ التي سادت أوربَّا في عصورها الوسطى تنكر أيَّ « علمٍ » خارج دائرة مؤسّساتها وكتبها المُقدَّسة لديها ، وتحارب أي تفكيرٍ يخرج عن حدود ما تُلَقِّنه لأتباعها من معلومات عن الوجود والحياة ، ونظرياتٍ فلكيَّةٍ وجغرافيَّةٍ وأحيائيَّةٍ ضمتها إلى كتبها من الفكر اليوناني ، لكن

---

(١) صحيح مسلم ، ٤/٢٠٨٨ .

(٢) الآية رقم (١١١) من سورة البقرة .

(٣) الآية رقم (١٥) من سورة الكهف

النَّاس كسروا هذا الطوق ومارسوا التفكير خارجها واستطاع بعضهم أن يتوصَّل إلى نظريات عن الكون والأرض والناس تخالف ما تقول به كتب الكنيسة، وقد ثارت ثائرتها وحاربت هؤلاء المفكِّرين ووصمتْ فكرهم بأنَّه هرطقةٌ وتجديفٌ؛ لأن « العلم » محصورٌ بما تقوله الكتب المقدسة ، ولكن أولئك المُفكرين واصلوا جهودهم، واستطاعوا أن يُقدِّموا من المعارف القائمة على الاستقراء والتجارب ما أثمر تطبيقات عمليَّةً في حياة الناس ، مما جعل هؤلاء الناس يتشبثون بهذا « العلم المادي التجريبي »، ويثقون به أكثر من « علم الكنيسة » .

وتطور الأمر إلى سحب البساط من الكنيسة تماماً في المجال المعرفي، فلم يَعُدْ لتعاليمها أيَّةُ قيمة علميَّة ، وانحصر العلم في فكر أوربا الحديثة في المعارف الماديَّة المنتجة من خلال المنهج التجريبي، وألحقت بها العلوم الإنسانية من خلال المنهج ذاته ، وجُعِلَ مقابلاً للدِّين - التعاليم المنسوبة للوحي - فقيل :

العلم والدين :

والعلم هنا ليس مجرد اصطلاحٍ ظرفيٍّ ، وإنما هو موقفٌ محدَّدٌ ، فمعنى كون العلم : هو معرفة الظواهر المادية، ولا طريق له إلا التجربة ، أنَّ ما سواهُ من فكر فلسفيٍّ نابع من العقل ، أو اعتقاد دينيٍّ نابعٍ من الوحي الإلهي ساقطُ القيمةً لا يعد علماً، ومن ثم فلا مجال لمساواته بها فضلاً عن تقديمه ، ولا ينبغي أن تقام عليه -أي الوحي أو العقل النظري- الحياة البشرية فكراً ولا حركةً ، وأقصى ما يُفسح له من مجال أن تُعَدَّ تعاليمُ الوحي كالفنِّ الشِّعري والرّوائي يمنحها الإنسان شيئاً من عواطفه وإن كان يتصور بطلانها وخياليَّتَها .

وفق هذه الرؤية تبلورت النَّظرياتُ التربويَّةُ وقامت المؤسساتُ التعليميَّةُ بإشاعة هذا العلم بمنهجه التجريبي ، وجرِّ الحياة لتكون تبعاً له ، ولأن مجاله

المادة فقد صبغ الحياة بالصِّبغة المادية اهتماماً وطلباً وتنافساً ، حتى تحولت المادية لدى كثيرٍ من الغربيِّين إلى ديانةٍ لها ما للدين من طقوسٍ وإخلاصٍ وجهودٍ وجهادٍ[1].

هذا هو العلم بمفهومه الغربي وموقعه البارز في حياتهم ، ولقد تأثَّر كثيرٌ من المسلمين بهذا المسار الخاطئ للفكر الأوربيّ في شأن العلم، ولم يبق هذا التأثُّرُ في نطاق التصوُّرات الفرديّة، ولكنّه لابس حياة هؤلاء حتى قامت مؤسَّساتهم التعليميّة على محاربة الفكر الدِّيني ، والإيمان بالغيب ، وعدِّه من معوِّقات العقل وهادمات المنهج العلمي ، وانشطر التعليم إلى ديني، دور خرّيجيه الوعظ وإمامة المساجد ، وآخر « علمي »، دور أصحابه قيادة الحياة وصناعة السَّعادة لها من خلال ثمرات هذا العلم تخطيطاً وتنظيماً، ولكن للأسف لم يكن هذا الاتجاه نحو « العلم » بمفهومه المعاصر عند هؤلاء المتأثّرين أصيلاً يهدف إلى الانخراط في العمل العلمي ، وتطوير التجربة وفق حاجات المجتمع العربي والإسلامي أي المشاركة الإبداعيّة فيه ، وإنّما كان مجرّد تقليد واستهواء مما يعيشه المجتمع الغربي ، فكان الهدف لدى هؤلاء هو النقلَ والترجمةَ والاستهلاك الفكري لما عند الغرب، والتعصّب له ضدَّ ما في ثقافة المجتمع من طرائق منهجيّة، أو حتى إمكانات بعث علميٍّ ، فكان صنيعها إساءةً للمجتمع وللعلم معاً ، إنها كما يقول برهانَ غليون : « جعلت من العلم معرفةً لاهوتيّةً مقدّسةً مفصولةً عن الواقع الذي استمدَّتْ منه ، وعن

(١) يقول محمد أسد مصوِّراً الماديّة الغربيّة : « إنّ رجل أوربا لا يعرف إلا ديناً واحداً، وهو عبادة الرُّقي الماديّ والاعتقاد بأنّه لا غاية في الحياة إلا أن يجعلها حرّةً طليقةً من قيود الطّبيعة ، أمَّا كنائس هذا الدين فهي المصانع الضّخمة ودور السينما والمختبرات الكيماويّة ودور الرَّقص ، وأمَّا كَهَنَتُها فهم رؤساء المصارف والمهندسون والممثّلات وكواكب السينما وأقطاب التجارة والصناعة » . الإسلام على مفترق الطّرق ، لمحمد أسد، ترجمة عمر فروخ، ص ٤٤-٤٥، الطبعة السابعة، ١٩٧٤م .

المجتمع الذي ظهرتْ فيه ، وعن الذات التي أنشأته ، وعن المطلب الذي وضع له »[1] .

وطبيعي أن يؤدِّي هذا المسلك إلى عكس ما كان يؤمل منه من تنمية ورقيٍ مدنيٍّ ، فقد حُطِّمت الصناعات التقليديّة ، وطرائق التنمية الزراعيّة والحيوانيّة ، ولم توجد بدائل علميّةٌ معاصرةٌ تزيد الأوضاع تحسيناً ، والمجتمعات تقدّماً ، وإنما بقيت هذه المجتمعات في أوضاعها المتخلّفة إن لم تزد تخلُّفاً وفقراً ، وتراجعاً في الإنتاج والتوازن المادّي .

فلسفة العلم في المملكة العربيّة السعودية:

لقد كان من أهمّ الأسباب التي دفعت المتأثِّرين بحركة التنوير الغربيّة -في مجال العلم المادي- نحو التعصّب لهذا العلم ومنهجيّته والنفور من الدين وعلومه أنّ مجتمعاتهم التي نشؤوا بها كانت تفقد التصوُّرَ الصحيح السَّليم للعلم في الإسلام بسبب المؤثِّرات الصُّوفيّة التي تتنكَّر للمعرفة العقليَّة ، والاهتمام بحاجات الإنسان الدنيويَّة والمؤثِّرات الجبريَّة المنكرة للأسباب التي يقوم عليها بنيان العلم المادّي الإنساني .

أما المجتمع السّعودي فإنّه بارتكازه على المنهج السَّلفي قد استعاد المفهوم الإسلامي للعلم بشموليّته وأصالته الشّرعيّة ، وعلى هذا المفهوم بنت المملكة سياستها الثقافيّة ومناهجها التعليميّة .

- فقد جعلت العلم الشّرعي قاعدة العلوم في كلّ التخصصات من حيث :

---

(١) اغتيال العقل ، لبرهان غليون ، ص ٢١٠ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٠م ، مكتبة مدبولي .

* تقرير المواد الشرعيّة قرآناً وسنةً وعقيدةً وفقهاً في المراحل الأولى والمتوسّطة والثانويّة .
* تقرير مادة « الثقافة الإسلاميّة » التي تقدّم التصوّر الشمولي للإسلام ، وتبرز عناصر تميّز المسلم، وتنقد الفكر المعاصر لكشف صحيحه من خاطئه -تقريرها- في المرحلة الثانويّة والدراسات الجامعيّة في كلّ تخصصاتها .
* تنقية المناهج من كلّ ما يخالف حقائق الكتاب والسنة عن الكون أو الإنسان أو الحياة أو غير ذلك .

- كذلك فقد أخذ العلم الشرعي أولويّته على العلوم الأخرى، لا من حيث هو قاعدة بناء شخصيّة المسلم -كما سبق-، بل من حيث هو تخصُّصٌ علمي له مجالات تطبيق لا يمكن للتخصصات الأخرى أن تنوب عنه فيه .

وإذا كانت الدولة تؤكّد في كلّ خططها وإعلان قادتها على أنّ بناء الإنسان هو غايتها الأولى فإنّ أولويَّةَ العلم الشرعي تحقق هذا البناء بإعلاء كرامة الإنسان ودفعه لطلب العلم، ورفع إيجابيّته في الحركة الاستخلافيّة في هذا الكون واستثمار ما تقدّمه العلوم الماديّة من تسهيلات عمرانيّة ومدنيّة .

وقدً تجلَّتً هذه الأولويَّة للعلم الشرعي في المملكة بدعم طلب العلم الشَّرعي ، وتحويله من دروس خاصَّة في المساجد محدود عدد طلابها فضلاً عن عدم الانتظام الإلزامي لهذه الدروس إلى دروس منظّمة في مؤسسات تعليميَّة -دار التوحيد ، المعاهد العلميّة . . .- ثم جامعات تشتمل علَى مختلفً التخصصات الشَّرعيَّة ، كما تجلَّت هذه الأولويَّة بتطوير مجالات التطبيق للمؤهَّلين شرعيّاً قضاءً وإفتاءً وتدريساً وغيره .

- الاحتفاظ بمصطلح « العلم » للعلوم الشرعيّة ، دون إنكار لوصف المعارف الماديّة -الكيمياء ، الفيزياء ، الأحياء - بالعلم ؛ ولهذا أُطلق على المعاهد التي تدرس العلوم الشّرعيّة « المعاهد العلميّة »، كما أنّ التخصّص الذي يدرس المعارف الماديّة في المرحلة الثانويّة يطلق عليه « القسم العلمي »، وهذا خلاف ما عليه غالبيّة المجتمعات الإسلاميّة، حيث تسمّى المدارس والمعاهد ذات الصبغة الشرعيّة بالمدارس والمعاهد الدينيّة .
- دعم العلوم العقليَّة والتقنية بصفتها فروضاً كفائيَّة ، ووسائل لتحقيق المقاصد الشرعيّة .
- ربط العلم التقني بغاياته الشرعيّة من حيث :

* توظيف نتائج هذا العلم لتحقيق مصالح المجتمع تطبيقاً لشرع الله بإغناء المجتمع بأبنائه المسلمين ، واستثمار تطوّراته في الارتقاء بأداء الدولة في التنمية وحفظ الأمن ونحو ذلك .
* جعل العمل بهذا العلم عبادةً لله ، بحيث يمارس الطبيب والمهندس وأمثالهما عمله بهذه الروح ، ويحسُّ أنه متسقٌ مع دينه ، ومن ثم مع مجتمعه ودولته .

- رعاية الاتساق بين التقني والشرعي ، بحيث يؤدِّي كلّ منهما دوره دون تنقُّصٍ للآخر ، وأن يخدم كلٌّ منهما صاحبه ، فالتقني يدعم حركة الاجتهاد في المجال الشرعي ، والشرعي يدعم حركة الإبداع في المجال التقني ؛ من أجل بلورة مسالك علميّة ناجحة في تطوير المجتمع ، أو على تحديد مواقف صحيحة تجاه مستجدّاتٍ العصر ، وأجلى ما يتبلور فيه هذا الاتساق بين المتخصّصً بالعلوم العصريّة والمتخصِّص بالعلوم الشرعيّة في المملكة في « مجمع الفقه الإسلامي » .

- نفي الفكر الفلسفي بصفته فكراً مستقلاً يعالج قضايا الميتافيزيقا والقيم ، سواءٌ كان مثاليّاً أو ماديّاً ؛ لأنّ العلمين الشرعي والتقني كافيان في سدّ حاجة المسلم فرداً وجماعةً ، وتحقيق إنسانيّته وسموّه ؛ ولهذا لا تدرس الفلسفة بمناهجها التخيّليّة في المملكة .

أمَّا العلوم الاجتماعيّة فقد كانت اهتماماتها في الحضارة الإسلاميّة متضمَّنَةً في العلم الشرعي ، لكنها في العصر الحاضر دخلت إلى البيئة الإسلاميّة بمنهجها وبنيتها الغربيّة ، وهي منهجيَّةٌ قائمةٌ على الوصفيّة والنسبيّة ، واتساقاً مع الخطّ الإسلامي الذي تسير عليه المملكة قامت الجهود لتأصيل هذه العلوم إسلاميّاً لتكون علوماً معياريَّةً تنظر إلى الواقع المتغيِّر من خلال موازين الشرع الثابتة .

وإذا أردنا الإشارة إلى بعض الشواهد التطبيقيَّة لفلسفة العلم الأصيلة في المملكة فإننا نذكر بإيجاز :

- سياسة التعليم التي بلورتْ هذه الفلسفة إسلاميّاً ، ومن ثم بنتْ عليها حركة التعليم في المملكة في كلّ مراحلها ، وسيأتي الحديث عنها .
- مجمع الفقه الإسلامي كما سبق .
- تخصصات تأصيل العلوم إسلاميّاً في أقسامٍ جامعيّةٍ ودراساتٍ عليا كالاقتصاد والإعلام والتربية . . . إلخ .
- هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسّنة التي تهدف إلى حماية القرآن والسنة من تلاعب التأويل الفاسد من جهة ، وإلى بيان عظمتهما فيما أخبرا عنه من حقائق تكشفتْ حديثاً من جهة أُخرى .
- جائزة الملك فيصل العالميّة ، وهيَ جائزةٌ إسلاميّةٌ في غايتها ومنهجها ، وكما وُضعت جائزةٌ للدراسات الإسلاميّة شرعيَّةً أو تاريخيّةً ، كذلك

وُضعتْ جائزةٌ للعلوم البحتة مفتوحةً للمسلم وغير المسلم ممن يقدّم خدمةً للإنسانيَّة .

- تكثيف الدراسات العليا والتخصصات للتخفيف من الابتعاث والسعي لحماية المبتعثين من الفساد الفكري، ومن أبرز الجهود في ذلك « دورة المبتعثين » التي تقام سنويّاً لتثقيف المُبْتَعَث السعودي شرعيّاً ووطنيّاً .

obeikan.com